

## من أساليب العربية الفصحى

د. مكّي الحسني (\*)

إن أسماء الإشارة واستعمالها المألوفة معلومة للجميع.

نتحدث هنا عن استعمال خاص للاسمين:

هذا،... / ذلك،...

جاء في كتاب الإمام الزمخشري «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل»، في تفسيره لقوله تعالى في سورة الحج:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ سَعْتِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

(\*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

١-١- في بداية الآية / ٣٠/: «(ذلك) خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر والشأن ذلك، كما يُقدّم الكاتب جملةً من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا، وقد كان كذا...» فهو (أي اسم الإشارة) يُذكر للفصل بين كلامين أو بين وجهي كلام واحد.

١-٢- في بداية الآية الآية / ٣٢/، (ذلك) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير:

الأمرُ ذلك!

١-٣- وعن قوله تعالى في سورة الحج أيضًا:

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ. وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

يقول المفسرون عما جاء في بداية الآية / ٦٠/: «(ذلك) خبر لمبتدأ محذوف

تقديره: الأمر الذي قصصناه عليك ذلك. أي ما قصصناه عليك من وعد

المؤمنين ووعد الكافرين هو ذلك، لا تغيير فيه ولا تبديل.» فهي كلمة يؤتى بها

على عادة الفصحاء للانتقال من كلام إلى آخر، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ

بِهِ...الآية﴾.

- وعن قوله تعالى في سورة محمد:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّسَبُلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ۝٤﴾

في بداية الثلث الأخير من الآية / ٤ / ، (ذلك) خبر مبتدأ مقدر: الأمر ذلك.

أي: الأمر فيهم ما ذكر.

٢-١ - وعن قوله تعالى في سورة ص:

﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۗ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٩ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۝٥٠ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتُ الطَّرْفِ أَنْزَابٌ ۝٥٢ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ۝٥٤ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لِشَرِّ مَآبٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّرُ الْمُهَادُ ۝٥٦﴾

أ- يقول المفسرون عما جاء في بداية الآية / ٤٩ / ﴿هذا ذِكْرٌ﴾، جملة من

مبتدأ وخبر، قصد بها الفصل بين ما قبلها وما بعدها، فهي للانتقال من غرض

إلى آخر، ففيها تلخُّصٌ<sup>(١)</sup> من قصة.

(أقول: والمعنى: هذا ذكرٌ [لأولئك الأخيار المذكورين في الآية /٤٨/ السابقة] بالثناء الجميل هنا، وإن للمتقين - وأولئك منهم - حُسنَ مآبٍ في الآخرة.)  
ب - في بداية الآية / ٥٥ / «هذا»، خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ، والتقدير «الأمر/ الشأن هذا»، أو: «هذا» مبتدأٌ خبره محذوف، أي للمؤمنين. وكما نرى فإن القصد من هذه الكلمة (هذا) هو الانتقال من الكلام على المتقين إلى الكلام على الطاغين.  
٢-٢- جاء في كتاب «دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجاني (الطبعة الثالثة ١٩٩٢م، التي قرأها وعلّق عليها محمود محمد شاكر) فصلٌ في ص ١١ عنوانه:  
في الكلام على مَنْ زهد في رواية الشعر وحفظه، وذمّ الاشتغال بعلمه وتبّبعه.  
قال الإمام بعد تمهيد:

... «أما من زعم أن ذمّه له من أجل ما يجد فيه من هزلٍ وسُخْفٍ وكذبٍ وباطل، فينبغي أن يذمّ الكلام كلّهُ، وأن يفضل الخرسَ على النطق، والعِيَّ على البيان، فمشور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه،... إلى أن قال في الصفحة ١٢:

---

(١) «التلخُّص» مصطلح نقدي، لعل أول من استعمله - إن لم يكن هو مَنْ وَصَّعَهُ - أبو عبيدة معمر بن المثنى، من علماء مدرسة البصرة (ت ٢١١هـ). ويُراد به انتقال الشاعر - أو الكاتب - وخروجه من غرضٍ إلى آخر. انظر أيضًا هذه المجلة، المجلد ٨٦، الجزء الثاني، الصفحة ٥٢٥.

هذا، وراوي الشُّعر حاكٍ، وليس على الحاكي عيبٌ، ولا عليه تَبَعَةٌ، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً، أو يسوء مسلماً، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار!...»  
٢-٣- وفي الصفحة ١٣٦ فصل عنوانه: «مواضع التقديم والتأخير»، جاء فيه:  
«... أفلا ترى أنك إذا استبطأت إنساناً فقلت:

«أتانا والشمس قد طلعت»، كان ذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول:  
«أتانا وقد طلعت الشمس»؟ وعكس هذا أنك إذا قلت: «أتى والشمس لم تطلُع» كان أقوى في وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذي ظنَّ أنه يجيء فيه، من أن تقول: «أتى ولم تطلع الشمس بعد».

هذا، وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نايياً، وإنما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه كقوله: «قد أغتدي والطير لم تكلم».  
فإذا كان الفعل فيما بعد هذه الواو التي يراد بها الحال، مضارعاً، لم يصلح إلا مَبْنِيّاً على اسم كقولك: «رأيتُه وهو يكتب»، و«دخلتُ عليه وهو يُملي الحديث». وقد استعمل الجرجاني هذا الأسلوب في مواضع كثيرة من كتابه المذكور، منها ما صادفته لدى تقليب أوراقه في الصفحات: ٣٦٠، ٤٠٣، ٤٥٤، ٥٧٩، ٥٩٧.

٣-١- في كتاب «أخطاؤنا في الصحف والدواوين» الصادر في دمشق سنة ١٩٣٩ لصلاح الدين الزعبلأوي، الذي نَوّه بمكانته اللغوية الشيخ اللغوي الشهير محمد الخضر حسين، وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين وغيرهم، تحدث المؤلف عن ضرورة تدارك ما فات العربية من مسايرة وجوه التعبير، وأن هذا من

واجب الحكومات والمجامع العربية والكتّاب العرب، ثم قال في الصفحة ٢٢: «ولو قنعنا بغير ذلك والكتّاب من لغتهم على ما ترى من البعد والغربة، وهي منهم على ما ترى من النُبُوِّ والنُّشوز، لخرجت لنا على أيديهم لغة مستحدثة لا تَمُتُّ إلى أصل ولا تتصل بأرومة.

ذلك، وإذا مضت حكومات الشرق العربي في ابتغاء هذا القصد في مواضعه وائتثار، فعلى وزارات معارفها<sup>(٢)</sup> أن تقوم بأوفى حظٍّ من هذه الخدمة في مدارسها. ففي مناهج تعليم اللغة وأساليب دراسة نصوصها، بل في طريقة تدريب الطلاب على استقراء قواعدها وخصائصها والتماس نُظْم تَأليفها، وفيما ينبغي أن يؤخذوا بحفظه واستظهاره من أصولها، وما يُختار لهم اطّراحه من تعريفاتها، وفيما يستحسن أن يتداولوه من مؤلفاتها ومعاجمها وما يؤثر أن يُلْمُوا به من كل فرع من فروعها، بل في وجوه إشاعتها والتلطف لها وحمل الطلاب على محاولة النطق بها كلما اتسعت لهم هذه المحاولة، فضلاً عن برامج تدريسها في السنوات الابتدائية والثانوية؛ في كل ذلك مجال للمعالجة والمعانة رحيب، وامتسح للتثقيف والإصلاح رغب». (إلى آخر هذا الكلام البديع، الذي قيل قبل أكثر من سبعين سنة من الآن، وكأنه قيل أمس.)

كما نرى، انتقل الكاتب من عرض الفكرة وضرورتها، إلى سُبُل تحقيقها... ونصادف هذا الأسلوب في كتاب الزعبلوي في غير موضع، كما في الصفحات ١٧ - ٢٢ (ذلك...)، والصفحات ٧، ١٣، ٢٧ (هذا،...).

(١) كانت وزارة التربية تسمى وزارة المعارف.